المونية وفكرة دمج الأديان
قضيـة التـوحيد هي قضية الإسلام والمحافظة على نصاعة الشخصية الذاتية لهذا الدين أولى أولوياته

تحـدثنـا في الحلقتين السابقتين عن ظاهرة المذاهب الدينية الحديثة في الغـرب بشكل عام ثم عن المونية بشكل خاص ونتحدث في هٰذه الحلقة عن فكـرة توحيد أو دمـج الأديان التي تتبناها المونية. . ولا بد من التمييز في هٰذا الصدد بين عدة مفاهيم أو دعوات متزامنة يسهل الخلط بينها بل وربما تعمدت الحركات المشبوهة تمييع الفروق بالمراوحة بينها وهي : توحيد الأديان، تقريب الأديان، الحوار بين الأديان، التعايش بين أتباع الأديان. وباختصار يمكن القول إن توحيد الأديان أو دمجها هو عملية سلطوية بمعنى أنها تستند إلى سلطة حيث كان يقوم بها قديما الكهنة أو الملوك متلبسين بسلطة دينية أما الحوار بين الأديان فهـو ـ نظريا على الأقـل ـ عملية انفتـاحية قد يكون الهدف منها عقيديا لأجل تقريب الأديان أو غير عقيدي لأجل تحسين مستوى التعايش بين أتباع الأديان. وسنتحـدث اليوم عن فكـرة توحيد الأديان بشكـل خاص مرجئين الحديث عن الحوار والتقريب والتعايش بين الأديان وأتباعها إلى حلقة قادمة إن شاء الله.

رغم إن فكرة توحيد الأديان قد تبدو صرعة جديدة جاءت بها المونية إلا أنها ظاهـرة قديمـة في تاريخ الأديان. ويطلق باحثـو الأديان اسم الألتقـاطية (الأكلكتزم) على عملية دمج عناصر مختلفة من أديان مختلفة دون محاولة إيجاد ربط أو تنسيق منهجي بينها ويستخدم نفس المصطلح في الفلسفة كذلك بينما يسمـون عملية الـدمـج هٰذه مع محـاولة إيجاد تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقـطة المختلفـة بالتلفيقية (السنكـرتـزم). والعنـاصـر الملتقطة قد تكون

معتقـدات أو معبـودات أو طقـوسـا. وغالبا ما تكون نتيجة العملية امتصاص العناصر الملتقطة ضمن أحد الأديان الأصلية الذي سيثبت قوته أمام العناصر الأخرى فيهضمها ويتمثلها في بنائه على حساب انحراف أو تطوير في ذاتيته أو ظهور دين جديد أو مجرد فرقة جديدة في الدين الأصلي.

ويرى باحثـو الأديان أن الألتقـاطية والتلفيقية ظاهـرة عامـة في الأديان الطوطمية والوثنية القديمة والمعاصرة منها عند من يسمون بالشعوب البدائية في مجـاهـل استـراليا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية. ذلك أن اختلاط القبائل والأفراد يؤدي عادة وبشكـل تلقائي إلى «تبني» معبودات القبائل الأخرى تجنبا لغضبها وطلبـاً لرضـاهـا. وقد استقصى الأستاذ العقاد في كتابه (الله) العقائد في دول الحضـارة القـديمة ويلاحظ القارىء أن ظاهرة الألتقاطية تشملها جميعا ابتداء بمصـر ومـرورا بالهنـد والصين وفارس وبابل وانتهاء باليونان. ولعل «مون» قد استقى فكرة توحيد الأديان من العقائد القديمة والتي ما تزال مسيطرة في الشرق الأقصى. ولا شك أن الديانات الشامانية والهندوكية والبوذية والطاوية والشنتوية في صورها المعاصرة هي ديانات تلفيقية بالمعنى المذكور آنفا.

وللتمثيل على ظاهرة الألتقاطية ننقل ما ذكره الأستاذ العقاد عن عقائد اليونان في كتابه المذكور: (ولما شاعت بين الإغريق عبادة أرباب الأوليمب، كان من الـواضـح أنهـا أربـاب مستعـارة من الأمم التي سبقتهم إلى الحضـارة وتنظيم العبادات، فالأله (زيوس) هو الأله (ديوس) المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة.. والربة أرتيمس ومثلها أفروديت هي الربة عشتار اليمانية البابلية ومنها كلمة ستار أي النجمة. والرب أدونيس هو أدوناي العبري وبعد فتح مصر أيام الإسكندر أضافوا عبادة سرابيس وهو اسم مركب من أوزوريس وأبيس المعبودين المصريين..).

وكـان الـرومـان يضيفون آلهة الأقوام المغلوبين إلى آلهتهم بشكل منتظم استـرضـاء للأقـوام المغلوبين ودفعـا لسخط آلهتهم. وعندما رأى «قسطنطين» الأكبـر وهـو أمبـراطـور رومـاني انتشـار وقـوة النصـرانية في الأمبراطورية رغم الاضطهاد الذي مارسته الأمبراطورية الرومانية ضدها اعتنق هو شخصيا الديانة

النصـرانية وإن بقي كذلك وحتى وفاته كاهنا أعلى لعبادة الشمس التي لا تقهر وهي الـديانـة الرسمية للأمبراطورية الرومانية. ويرى «أرنولد توينبي» في كتابه تاريخ البشرية (الجزء الثاني من الترجمة العربية ص ٢١) أن «قسطنطين» اعتبر (الشمس) هو المسيح وقد دعم «قسطنطين» في المجمع المسكوني الأول الذي عقد في نيقية الأقلية التي قررت ألوهية المسيح على غرار تأليه الأباطرة الرومان. وهكذا يكون «قسطنطين» قد نجح أخيرا في حل الأشكال الذي منع في البداية من دمج النصرانية في مجمع الأديان الرومانية وهو قول المسيح أعط ما لقيصر لقيصـر وما لله لله وهي مقولة رغم أنها تبدو في ظاهرها حلاً وسطاً إلا أنها كانت تعني رفض الاعتراف بألوهية الأمبراطور (راجع حكمة الغرب لـ «برتراند رسل» ـ سلسلة عالم المعـرفـة). وذلـك بأن أصبـح الأمبـراطور نفسه هو الذي يقرر العقيدة. وقد جلس «قسطنطين» وسط الأقلية المؤلهة للمسيح وأعطاهم خاتمه وسيفه وصولجانه وقال قد سلطتكم اليوم على مملكتي فباركوه وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية واحمه كما يقول ابن البطريق.

وقد قام اليهود بمحاولة التقاطية مبكرة يقول تعالى: ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهـة قال إنكم قوم تجهلون**﴾ [الأعـراف: ١٣٨] ـ وقد عكفوا على عبادة آلهة الأقوام الآخرين منذ عهد القضاة (سفر القضاة ـ الأصحاح الثاني: وتركوا الرب وعبـدوا البعـل والعشتـاروت.. فأقام الرب عليهم قضاه.. ولقضاتهم أيضا لم يسمعـوا بل فجروا باقتفائهم آلهة أخرى وسجدوا لها) وفي ظل المملكة عبدت إسرائيل العجل ففي مملكة إسرائيل صنع مؤسسها «يربعام» عجلين من ذهب وقال لشعبه هذه آلهتكم تفاديا من السماح لشعبه بالذهاب إلى أورشليم واستمر خلفاؤه في صنع الشر في عيني الرب، وعبادة البعل والعشتاروت وأقاموا مشارف وأنصابا وغابات على كل ربوة عالية وتحت كل شجرة خضراء لعبادة آلهة الأقوام الأخرى. ولم تكن الممارسات الدينية في مملكة يهوذا بأفضل منها في مملكة إسرائيل فأقاموا هم أيضا المشارف والأنصاب.. وربما قام أحد ملوكهم بإزالة بعضها فلا يلبث خلفه أن يعيدها. والتصور اليهودي للإله كما جاء في العهد

القـديم لا يختلف كثيرا عن التصورات التي كانت سائدة في تلك الأيام بين الأقوام الأخرى فالله ـ تعالى ـ ينادي آدم في الجنة ليعلم أين هو ويستفسر إن كان أكـل من الشجرة المحرمة فيهرب آدم وقد سمع حسيس الله ـ تعالى عن ذلك ـ بين أشجار الجنة كما يصف العهد القديم (مباراة في المصارعة) بين الرب وبين يعقوب عليه السلام وهكذا (راجع كتاب التوراة للدكتور مصطفى محمود).

وكانت ديانة مشركي العرب التقاطية كذلك فقد استوردوا العقائد والأوثان من الشـام واليمن وتذكر الروايات أن عمرو بن لحي الخزاعي جلب معه (هبل) من الشام ولعل العزى هي ابزيس المصرية ومناة هي منوتن النبطية. وقد طعموا بذلك كله ديانة إبراهيم عليه السلام التي احتفظوا منها باسم (الله) وبتقديس الكعبة وببعض مراسم الحج وقد جمعوا حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنما تمثل آلهة كل القبائل العربية ولما أعادوا بناء الكعبة بعد حدوث السيل الذي هدمها مستعينين بنجـار رومي وأخشـاب سفينـة رومية كانت قد غرقت وقذف البحر أخشابها إلى شاطىء جده لم يمانعوا في وضع صورة المسيح وأمه داخل الكعبة بناء على مشورة النجار الرومي (راجع تاريخ العرب في الإسلام لـ جواد علي) ولـذلـك فإنهم تقـدمـوا من الرسول ﷺ بعرض لدمج ديانتهم بالإسلام. ذكر الواحدي في كتابه أسباب النزول أن سورة الكافرون نزلت في رهط من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك. تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره فأنزل الله تعالى ﴿**قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين**﴾ فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة فيئسوا منه عند ذلك.

وهكـذا كان رفض الإسلام لهذه المحاولة (الدمجية) قاطعا رغم ظروف الاضطهاد التي كان يعاني منها المسلمون في ذلك الوقت والتي تجعل البعض

يراها فرصة مغرية في ظروف مشابهة ذلك أن قضية التوحيد هي قضية الإسلام حقا وأن الحفاظ على نصاعة الشخصية الذاتية لهذا الدين هي أولى أولوياته.

ولعل للإلتقاطية إغراء دائما على النفس الإنسانية. روى الترمذي بسنده عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ: «سبحان الله هٰذا كما قال قوم موسى، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة والذين نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم» وقد كان لهذا التعليم النبوي أثره الحاسم في نفوس الصحابة فقد سدوا الطريق أمام كل ما يمكن أن يكون من شأنه تشويه أو تلويث صورة التوحيد النقية لهذا الدين ومن ذلك اقتطاع عمر بن الخطاب لشجرة الرضوان عندما رأى بعض المسلمين يخصونها بالصلاة عندها. وكان لتعليم آخر من تعاليم الرسول ﷺ دوره القاطع كذلك في منع كل إمكانية للتلقي العقيدي من غير كتاب الله وسنة رسوله بحيث يظل نبع العقيدة في هٰذا الدين صافيا تماما. روى الطبراني وأبو يعلي والبزار وأحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله وعبد الله بن شداد وعمر بن الخطاب وعبد الله بن ثابت وأبي الدرداء أن عمر بن الخطاب طلب من يهودي من بني قريظة أن يكتب له جوامع من التوراة فجعله في أديم ثم جاء به رسول الله ﷺ فسأله ما هٰذا الذي بيدك يا عمر فقال كتاب نسخته لنزداد به علما إلى علمنا فغضب رسول الله ﷺ وتغير وجهه وقال: «امتهوكون انتم كما تهوكت اليهود والنصارى. لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل» ومتهوكون أي متحيرون في دينكم والبيضاء النقية هي ملة الإسلام قال تعالى: ﴿**وذلك دين القيمة**﴾ [البينة] ـ أي دين الملة القيمة.

وبهذا يتضح أن لا مجال في الإسلام لأية محاولة التقاطية أو تلفيقية. فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للإنسان ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ [آل عمران: ١٩] وهو الخضوع لشريعة الله عز وجل الناتج عن الإيمان بأنها من عند

الله خالق الإنسان الذي يشرع له ما يعلم أنه يصلح له. ﴿**ومن أحسن من الله حكما**﴾ [المائدة: ٥٠] ومحمد رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ [الأحزاب: ٤٠] وشريعته خاتمة الشرائع وهي ناسخة لكل ما قبلها مهيمنة عليها ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه**﴾[المائدة: ٤٨]. ومكتملة اكتمالا ذاتيا تاما ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة: ٣]، وعليه فالرسالة المحمدية هي خطاب الله الأخير للإنسان حتى يرث الله الأرض وما عليها وهٰذا يقتضي بدوره حفظ نصوصها حفظا مطلقا ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩].

وقد بين القرآن الكريم أن الناس لن يجتمعوا في هٰذه الحياة الدنيا على دين واحد ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾ [هود: ١١٨]، ودور الأمة المسلمة هو في الخلافة عن رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله ﴿**لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم**﴾ [الحج: ٦٧]، وفي الجهاد في سبيله ﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هٰذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾ [الحج: ٧٠]. صدق الله العظيم.

نشرت في جريدة اللواء ١٩٩٢/٣/٢٥